الفصل الحادى عشر

حروب الشام

إن أكبر ما تمتاز به الزعامة هو قدرتها على استرداد قوتها لتقضى بها بغيتها . وأكبر ما يميز القائد الماهر عن الجندى الموفق ، هو أن الأول إذا هزم تحمل الصدمة ولم تذهب ريحه . لذلك ترى الأمة الإنجليزيه كثيراً ما تضطرب أمورها فى المراحل الأولى من حروبها ، وكثيراً ما تخسر جميع مواقعها إلا الموقعة الحاسمة الأخيرة . وليس أدل على أن محمداً عليا وإبراهيم كانا يمتازان بأعظم صفات الزعامة ، من أنهما أخذا يعملان ليمحوا أثر الهزيمة التى منيا بها فى نوارين ، كما أن انصرافهما إلى بناء أسطول جديد دليل على منتهى الحكمة وبعد النظر .

وقد كتب سمار كو فى كتابه القيم « الأسطول المصرى فى عهد محمد على » وصفاً رائعا لما كانا يبديانه من الهمة والشجاعة فى إنشاء الأسطول الجديد . وأبلغت القنصلية الروسية فى الإسكندرية بطرسبرج فى ٢٨ مايو سنة ١٨٢٨ قبل أن يعود إبراهيم من بلاد المورة أن عدد وحدات الأسطول المصرى قد بلغ اثنتين وخمسين سفينة معظمها من الأباريق (ذات الشراع المربع) والبوارج الصغيرة من نوع الچيولت والكورفت »[1] .

وبعد شهرين من هذا التاريخ كتب هذا القنصل نفسه يقول إن محمداً عليا اعتزم إنشاء أسطول ، وأعد العدة لاستيراد ما يلزمه من الخشب من كرمانيا

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٢٢٣ .

والنحاس من توكات فى آسيا الصغرى ، وإنه شرع فى إنشاء دور لصناعة السفن فى مصر . وقد وضع للعمل نظاما محكما حتى أنه أدخل فى مصر نباتات جديدة ، لكيلا يضطر إلى استيراد المواد اللازمة لصنع الحبال والأشرعة[١] ، وعين فى شهر فبراير سنة ١٨٢٩ رجل فرنسى يدعى سريزى Cerizy ليشرف على إنشاء الأسطول الجديد[٢] .

ولم يكن محمد على ليجهل أن الحرب لا بد ناشبة بينه و بين عبد الله والى عكا حصن الشام الحصين فى يوم من الأيام . ولذلك أخذ يعد للأمور أقرانها لأن الدولة العثمانية بله البحر الأبيض الشرق لا تتسع لمحمد على وعبد الله ؛ فكلاهما طموح يبغى مجالا واسعاً لمطامعه ؛ وتجاورهما لا بد أن يؤدى إلى قيام النزاع بينهما ، لأن كلا منهما حجر عثرة فى سبيل الآخر ، ولا بد أن يكون السيف هو الفاصل بينهما مهما تراخى الأمد . وجاءت الفرصة المرتقبة حينما ازدهى عبد الله على والى مصر . و يقال إنه حاول مرة أن يدس السم لمحمد على و إبراهيم ، و إنه جعل من البلاد التى كان يحكمها معششاً للمؤامرات على مصر[٣] . على أن الباشا وولده لم يأبها لهذه الدسائس ، لأن الأخطار التى كانا يتعرضان لها نتيجة لازمة لمنزلتهما السامية . فلما أن تحقق عبد الله بالمصريين الفارين من الجندية ، شعرا أن الوقت قد حان لامتشاق الحسام .

وأدرك السلطان أن الشر لا بد أن يستطير بين تابعيه القويين . ومع أن محمودا لم يكن من الحكام الأقوياء ، فقد كان يعلم من أحوال دولته ما يكفى

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٢٦٣ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٣٣٣ .
(٣) تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى تأليف كدلفين وبرو طبعة أوثر برتران بباريس ١٨٣٧ ص ٤١ .

لإدراكه أن والى مصر أقوى الفريقين ، ولذلك اعتزم أن يضعف من شوكة محمد على بالتودد إلى إبراهيم لعله يستطيع أن يفرق بين الوالد الشجاع وابنه المدبر ، ولكن رجاءه خاب . وكانت الخطة التى دبرها ليصل بها إلى غرضه خطة ساذجة ، وهى أنه منح إبراهيم لقب « أمير مكة » اعترافاً بفضله فى الاستيلاء على الحرمين ، وهو اعتراف جاء بعد فوات الأوان . وكان هذا اللقب أعلى ألقاب الشرف التى يستطيع الباب العالى أن يمنحها إنسان ، وكان صاحبه يقدم على جميع وزراء الدولة العثمانية ، فأصبحت له بذلك الرياسة الدينية على محمد على . لكن إبراهيم أخلف مظنة السلطان ، فأخفق مسعاه فى إذلال باشا مصر و بذر بذور الشقاق بينه و بين ولده ؛ لأن « أعظم ما يمتاز به إبراهيم » كما يقول موريه « هو إجلاله لوالده وخضوعه لرأيه على الدوام ، لأنه كان يرى أن أعظم مفاخره أن يكون عون أبيه وساعده الأيمن »[1] .

وكانت نتيجة هذا السعى للتفرقة بين محمد على و إبراهيم و بالا على محمود ؛ إذ نقلت إليهما عيونهما أن محموداً يعين عبد الله فى عدوانه عليهما . غير أنهما تقبلا هذه المناورات الخفية بصدر رحب ، لأن من عادة الشرقيين أن ينظروا إلى الدسائس تحاك حولهم وهم هادئون مطمئنون . لكنهما عند ما عرفا أن الآستانة تريد استذلال الباشا ، أجمعا أمرهما على أن يزجرا عبد الله زجراً تصطك له مسامع محمود . ولسنا فى حاجة إلى أن ننبه القارئ أنهما لم ينبذا طاعة الباب العالى أو يعلنا الحرب عليه ، بل كان كل ما اعتزماه أن ينكلا بوالى عكا تنكيلا يعرف منه مولاهما مبلغ استيائهما منه ، ويكون عربوناً لما سوف يلقاه منهما فيما بعد .

وكان أول ما فعلاه لتنفيذ هذه الخطة الحكيمة أن أرسلا رسولا إلى عبد الله مزوداً بأمر منهما يقضى :

(١) موريه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ١٤٩ .

(١) بأن يدفع ١١ مليون قرش يستحقها محمد على طرفه .

(٢) وأن يطرد من عنده الفلاحين المصريين .

(٣) وأن يعد وعدا صادقا بأن لا يسمح للمصريين بعد الآن بالهجرة إلى ولاية عكا .

فنظر عبد الله فى القانون ثم أجاب بقوله :

إنى مثلك وزير لمولانا المعظم السلطان محمود حفظه الله ونصره ؛ وليس من حقى أن أمنع الرعايا المخلصين لمولانا المعظم من الانتقال من مصر إلى الشام ، كما أنه ليس من حقك أن تمنع هؤلاء الرعايا من الهجرة من الشام إلى مصر . فإذا شئت أن أبادر بتسليم هؤلاء الفلاحين ، فما عليك إلا أن تستصدر لى أمراً بذلك من السلطان نفسه »[١] .

ولم يعجل محمد على بغزو الشام لانتشار الطاعون والكولرا فى مصر . ولم تمنعه عنايته بمكافحته الوباء من أن يكمل استعداده البرى والبحرى . وكان إبراهيم فى الوقت نفسه دائب الحركة والنشاط ، لا يسهو عن شىء مما يحتاجه حتى عصير العنب المخمر اللذيذ . لقد عرفنا من قبل أنه فى أثناء زيارته مكة ألقى بما كان معه من الروم فى النار ؛ أما الآن وهو يستعد لغزو الشام فقد قال فيه القنصل الروسى إنه « أصبح أكثر مدنية لأنه كان يشرب كثيراً من النبيذ من غير أن يضيف إليه الماء ، وكانت تعلو ثغره بتسامة لطيفة على الدوام ، وكان إذا حادث إنساناً وضع يده على كتفه مبالغة فى اللطف والرقة . ومجمل القول أن آدابه هى آداب الجندى »[٢] .

---

(١) كدلقين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٤٧ .

(٢) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٣٦٢ .

وكان الجيش والأسطول الجديدان على قدم الاستعداد فى خريف سنة ١٨٣١ حينما فرغ إبراهيم باشا من ملء خزائنه بطيبات الحضارة الغربية . ثم أقلع الأسطول فى الرابع من نوفمبر وسافر إبراهيم بحراً فى السفينة قوله ، وهى فرقاطة بنيت فى ميناء أركنجل Archangel ، ميمما ثغر يافا ، حيث اتفق أن ينضم إليه قائد الفرسان سليم بك ، وعباس باشا وغيرهما من الضباط ومعهم ثمانية آلاف من الجمال والجند . وسار مع إبراهيم بطريق البحر سبعة آلاف من المشاة[١] . وكانت عمارته تتألف من إحدى وعشرين سفينة . على أن تقريراً من تقارير القناصل الروس قد ذكر أنها كانت تتألف من فرقاطة بها عشرة مدافع ومائة مدفع ومن أربع فرقاطات بها ستون مدفعاً ، واثنتين بكل منهما أربعة وأربعون مدفعاً ، وأربع عشرة أخرى أصغر منها ، عدا سفن النقل والحراقات[٢] . ويقول هذا القنصل نفسه إن هذه الحملة سيرت من غير أن يأذن لها السلطان بالسفر[٣] . ولربما كانت يافا هى المكان الذى اختير ليجتمع فيه إبراهيم بالحملة التى سافرت إلى الشام برا ؛ لكنه التقى أولا بالقبائل الوطنية الضاربة حول حيفا . وكان قد نزل عندها إلى البر دون أن يكون معه سوى ستمائة من رجاله ، لأن الرياح عاقت سير سفن النقل . وقد وجد بجوار معسكره قوة كبيرة من العرب ، لم يقرر قوادها أينضمون إلى عبد الله أم إلى إبراهيم ، بل كانوا ينتظرون حتى تنجلى لهم حقيقة الموقف فينضوون تحت لواء أقوى القائدين . فلما رأوا العمارة المصرية أيقنوا أن إبراهيم أشد بأسا ، فجاءوا إليه يعرضون عليه خدمتهم فى الظاهر ويتبينون حقيقة أمره فى الباطن . ولكن إبراهيم أدرك مخبئات صدورهم ، فنظر

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٨ .
(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٦ .
(٣) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٤٧ .

إليهم نظرة ثاقبة لم يستطيعوا معها أن يحاجزوه عن ذات أنفسهم ، بل ثبت عليهم وجوههم ، فنكسوا أبصارهم ونظروا إلى موطئ نعالهم ، فأدرك إبراهيم ما كانت توسوس به نفوسهم من غدر وخيانة . وكان من أقواله المأثورة « إن الرجل الشريف لا يستحيي أن يلقاك بوجهه » . وقال فى نفسه : « ها قد أخذت بمتنفس هؤلاء الأدنياء » ثم أحدق فيهم بنظره و بش فى وجوههم وتبسم ابتسامة لطيفة وقال : « لا مانع لدى من أن تكونوا فى خدمتى ، ولكننى سأحتفظ بأولادكم رهائن عندى حتى أتثبت من إخلاصكم » . فنظروا إليه لحظة كأنهم يريدون أن يجيبوه عن قوله هذا ، ولكنهم رأوه لا يزال محدقاً فى وجوههم فأيقنوا أنه قد أخذ عليهم مذهبهم ، فاستسلموا للقضـــاء وانضووا هم وجيرتهم تحت لواء إبراهيم[1] .

و إذا كان علم إبراهيم بالطبيعة البشرية قد أكسبه معونة هذه الطوائف الإسلامية ، فإن تسامحه عاد عليه بصداقة المسيحيين من أهل البلاد المقدسة . من ذلك أنه قدم عليه بعد بضعة أيام من استيلائه على حيفا جماعة من رهبان الكرمل كانوا يريدون أن ينشئوا لهم ديرا على ذلك الجبل القريب من هذا البلد . و يظهر أنهم بعد أن جمعوا بعض مواد البناء اللازمة لهم وعلم عبد الله بما انتووه ، رأى أن موضع الدير يصلح لأن يبنى فيه لنفسه قصرا جميلا ؛ فاستولى على مواد البناء ليبنى بها ذلك القصر . وطلب الرهبان إلى إبراهيم أن يأذن لهم بتنفيذ غرضهم الأول ، فأجابهم إلى ما طلبوا وقال لهم : « خذوا كل ما تجدونه من مواد البناء واهدموا القصر إذا كان هدمه يتفق مع أغراضكم » . وقبل أن يبرح الرهبان المكان قال أحدهم إن عبـد الله قد قسا عليهم وظلمهم فلم يترك لهم مكانا جافا يخزنون فيه

(١) ياتس فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٨٢ .

خبزهم وأغذيتهم القابلة للتلف . فأجابهم القائد المسلم : « هيا بنا نبحث عن مكان يصلح لهذا الغرض » . وسرعان ما وجدوا أن ليس فى حيفا مكان يقى الأطعمة من المطر إلا المسجد التركى وكنيسة الروم الكاثوليك ، فتفقدها إبراهيم ثم التفت إلى الكبتن برسك Captain Prissick أحد الضباط الإنجليز الذين كانوا معه ، وإلى راهب ملطى مسن وقال لهما : « إنى إذا أخذت كنيستكم لم تجدوا مكانا تعبدون الله فيه ، وقال الناس عنى إننى همجى . أما رجالى فإنهم يستطيعون أن يؤدوا صلاتهم فى الجامع وفى العراء على السواء ، ولذلك يجب أن يكون المسجد مخزنا لطعامكم . ثم أتبع القول بالفعل ، فأخذ فأساً وفتح به منفذا فى الجدار المواجه للبحر » . ويقول الدكتور ياتس الذى نقلنا عنه هذا الحديث والذى يذكر أنه جمع هذه الحقائق فى حيفا نفسها : « واشترك إبراهيم بنفسه فى نقل أول كيس من الخبز[1] » .

ولذلك لا نعجب من قول هذا المؤرخ نفسه بعد ذلك « وكان لهذين العملين السياسيين أثر فى فتح الشام لا يقل عن أثر جيشه ، وذلك لأن لرجال الدين فى هذه البلاد نفوذ عظيم . ولم يفتهم أن يذيعوا هذين الخبرين بين السوريين المسيحيين . ويجدر بنا أيضا أن نذكر حادثا آخر كبير الأهمية ؛ ذلك أنه لما اقتربت قواه من عكا أرسل إلى عبد الله قبل أن يبدأ الهجوم عليها يحثه على أن يسمح للنساء والأطفال جميعا بأن يغادروا المدينة[2] » .

لكن عبد الله لم يعمل بهذا الاقتراح ، وأحدق إبراهيم بالمدينة وهاجمها من البر والبحر . ولم يكن الاستيلاء عليها بالأمر اليسير ، فهى التى وقفت فى وجه

(١) المصدر عينه فى نفس الموضع .
(٢) المصدر عينه جزء ٢ ص ١٨٣ .

نابليون ، وهى التى كان يدافع عنها عبد الله وهو رجل صارم القلب ثابت الجنان ، وإن لم يكن حكيما مدبرا حر الفكر شريف النفس . وحاول إبراهيم فى اليوم التاسع من ديسمبر عام ١٨٣١ أن يأخذ المدينة عنوة بالهجوم عليها من البر والبحر ، ولكنه كان يروم مراما بعيداً . ويقول القنصل الروسى فى الإسكندرية فى رسالة بعث بها إلى رئيسه فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٣١ إن الهجوم لم يخفق فحسب بل أصبح من المستحيل أن يتنبأ الإنسان بما كان للمهاجمين فى ذمة المستقبل[١] .

على أن الصعاب التى قامت بعدئذ لم يكن منشؤها مناعة عكا الطبيعية ، ودفاع عبد الله المجيد عنها فحسب ، بل كانت أيضاً نتيجة الخطة التى سلكها الباب العالى . فبينما كان إبراهيم يدك حصون هذا البلد المنيع بمدافعه ، كان السلطان يصب عليه اللعنات ويسلط عليه سيلا من الفتاوى الدينية ؛ فمن ذلك أنه أصدر خطا شريفاً يرمى فيه مصر بالمروق ، ويعلن حصار ثغورها ، وأشيع أن الأوامر صدرت إلى الجنود التركية بالزحف على بلاد الشام[٢] ؛ ومنها أنه أصدر فى الرابع من مايو سنة ١٨٣٢ فرماناً شاهانيا بتجريد محمد على وإبراهيم وإباحة دمائهما[٣] .

ومر الأسبوع يتلو الأسبوع وعكا مستعصية على الجيش المصرى ، لا يستطيع أن ينال منها منالا . وقلقت الأفكار فى القاهرة والإسكندرية ، ولكن محمداً عليا بقى مطمئنا مشبع الجنان موقناً بالفوز ؛ وكان يقول على الدوام « ستستقيم الأمور بعد سقوط عكا » . لكن عكا لم تسقط ، وقلقت أفكار الشعب

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٥٣ .

(٢) « حكم محمد على من وثائق دبلوماسية إيطالية لم تنشر بعد » تأليف أنجيلو سماركو طبع فى روما على نفقة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية سنة ١٩٣٢ جزء ٩ ص ٢٠٥ .

(٣) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٧٩ .

فأصدر الباشا فى ٨ مارس سنة ١٨٣٢ أوامر مشددة تحرم إذاعة أنباء الحرب فى مصر .

وأرسل نائب القنصل الروسى فى القاهرة فى ٣٠ مارس إلى رئيسه فى الإسكندرية ، يبلغه أن أربعة من أهل المدينة قد ضربت أعناقهم جزاء لهم على ثرثرتهم ، وأن عشرين من زملائهم زجوا فى غيابة السجون لينتظروا فيها ما قدر لهم من خير وشر .

وعلقت على أجسام رجلين من هؤلاء الثرثارين أوراق كتب عليها « هذا جزاء الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » ، وفى اليوم السابع من إبريل سنة ١٨٣٢ عرضت على الجمهور جثتان أخريان كتبت عليهما العبارة الآتية : « هذا هو العقاب الذى يحل بمن يقولون السوء عن الحكومة خفية »[١] .

ولو طال الانتظار أكثر من ذلك لأعدت أوراق خاصة لمن يذيعون أخبار السوء عن الحكومة وهم نائمون . وفى اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٣٢ حمل إبراهيم على المدينة حملة شديدة ، لكنه عجز عن اقتحامها ؛ فاستقر رأيه على أن يترك حولها خمسة آلاف من رجاله ، و يزحف بمن بقى منهم ، ليواجه جيوش أعدائه المحتشدة . فالتقى بالجيش التركى الذى سيره السلطان لقتاله ، وانقض عليه وحصده حصد الهشيم[٢] ، وعقد له النصر أينما حل ، ولما وصلت هذه الانتصارات إلى القاهرة والإسكندرية ، ارتفع شأن إبراهيم ووثق الناس من قدرته و بسالته ، وتبدل قنوطهم أملا واستبشاراً ، وانطلقت الألسن من عقالها ، وأجيز للثرثارين أن يجهروا أو يخافتوا بأنباء الحرب ، ولم يعد منخو بو القلوب

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١١٠ .
(٢) سمار كو فى كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ١٢٦ .

يخشون أن تذيع أزواجهم ما كانوا يرددونه من الأقوال فى منامهم .

و بعد أن اتقى إبراهيم الخطر الذى كان يهدد قواته المحاصرة ، عاد إلى عكا فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٣٢ ، وحمل عليها حملة صادقة أشرف عليها بنفسه . وكان إذا حمى وطيس القتال فى مكان ، رأيته فيه يخوض غماره ويصطلى ناره ، وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهبون الردى . ويقال إنه قتل بيده نفراً من الضباط لأنهم أرادوا أن يرتدوا إلى آخر صفوف المهاجمين .

وطالت المعركة واشتد سعيرها وعبد الله لم يتضعضع ركنه . فلما آذنت الشمس بالمغيب حمل إبراهيم على المدينة حملته النهائية ؛ وأبدى المهاجمون عند مغيب الشمس من ضروب الجرأة والحماسة والإقدام مثل ما أبدوه فى مطلع الفجر . ودافع عبد الله دفاع الأبطال ، لكن شجاعته لم تغن عنه شيئاً ، وسقط هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرخى سدوله على جدران المدينة وأسوارها .

وجاء أعيان المدينة يطلبون الرحمة . ولما كان الشجاع دائماً يعظم الشجعان ، رأى إبراهيم فى فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بمحاربتهم ، فلم يسعه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ؛ وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم . أما عبد الله نفسه فلم يعده بأكثر من تأمينه على حياته ، لكنه تلقاه بما هو خليق بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة ، و بما توجبه مصائبه من الإجلال »[1] .

وسلك عبد الله فى ساعة المحنة مسلك البطل المقدام . فقد استولى إبراهيم على الحصن الحصين الذى امتنع على بونابرت فارتد عنه خائباً ، لكن هذا الحصار لم يكن فيه سدنى سمث Sydney Smith يطوف بأسطوله قرب الشاطئ ،

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ١٥٥ .

يحول دون وصول المدافع الثقيلة إلى المدينة ويصد عنها الهجوم من البحر . فلما أعوزها هذا المدد وما يبعثه فى قلوب أهلها من الشجاعة والأمل ، حاق بها الخطر ، فهزم عبد الله بعد أن دافع عنها دفاع الليث عن عرينه . ولما طلب إليه إبراهيم أن يأتيه بأموال الدولة عملا بشروط التسليم أجابه عبد الله :

« لقد كان لى أسوار وجنود وأموال أدافع بها عن عكا . فأما الأسوار فقد دكت ، وأما الرجال فقد كان معى منهم ستة آلاف هلك منهم خمسة آلاف وستمائة ، وأما الأموال فلم يبق منها إلا جواهر قليلة »[1] .

وكان عبد الله قد خر راكعاً أمام إبراهيم عند ما عبر عن شعوره بهذه الألفاظ . لكن القائد المظفر لم يسمح له بالركوع وقال له :

« إنى لا ألومك على مقاومتك إياى لأننا صنوان ؛ ولكنك قد عدوت طورك إذ أردت أن تقف فى وجه محمد على » . فأجابه عبد الله على الفور : « إن إرادة الله هى التى أوقعتنى فى يديك » . وبعد أن تبادلا أطراف الحديث هنيهة وهم إبراهيم بالانصراف مساه وقال له :

« أرجو أن تنام الليلة نوما هادئاً » . فأجابه عبد الله : « سأنام كما كنت أنام من قبل ، لكننى أطلب أن لا تعاملنى كما تعامل النساء ، فإن موقفى فى الدفاع لم يكن موقفهن . إن الخطأ الذى وقعت فيه هو أننى بالغت فى الاعتماد على السلطان ، لكن حظ السلطان من الشرف ليس أكثر من حظ النساء . . . ولو أننى عرفت خلقه لاختططت لنفسى خطة أخرى ؛ ولو فعلت لما كنت الآن أسيراً فى يديك »[2] . وأرسل عبد الله وأفراد أسرته إلى مصر ، ويظهر

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١١١ .

(٢) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ١٩٧ .

أنهم قد أحسنت معاملتهم و إن بقوا فى ذل الإسار .

ونهب الجند عكا رغم ما قطعه إبراهيم لأعيانها من الوعود ، وما أصدره لجنوده من الأوامر ؛ إذ يلوح أن الجند أفلتوا من يده برهة قصيرة من الزمان ، فانطلقوا فى المدينة فى أثناء الليل ينهبون ذات اليمين وذات الشمال . لكن النظام لم يلبث أن أعيد فى صباح اليوم التالى ؛ وبذل إبراهيم كل ما فى وسعه ليكفر عن خروج الجند عليه ، فأذاع فى الناس أن كل من فقد متاعه سيرد إليه إذا وجد ، وأمر جنوده أن يعيدوا كل ما كان فى حوزتهم من الأسلاب .

وانتهز أحد القناصل الأجانب فرصة هذا الاضطراب ، فجعل من نفسه سمساراً وجمع بذلك مالا كثيراً ؛ فقد كان يبتاع أقوم الأشياء بأبخس الأثمان ثم يعود فيبيعها بأغلاها ، ويجنى من وراء ذلك أرباحا طائلة ، مستظلا براية الامتيازات[1] . وقد نقلنا هذه الحقائق عن كدلڤين وبرو Cadalvéne and Barrault اللذين استقياها من أماكنها ، ونشرا كتابهما فى عام ١٨٣٧ . . . . . .

وسار إبراهيم من عكا متجهاً نحو دمشق ، تلك المدينة التى لا يزال يخترقها الزقاق الذى سماه القدّيس بولس « المستقيم » . والمدينة واقعة فى واد ممرع وغير منيعة الحصون ، وكانت فى ذلك الوقت من المدن التى يصح أن تسمى مدنا عالمية . ولم يحاول أحد أن يدافع عنها بل تركت تحت رحمة الغزاة . ولما دخلها إبراهيم لم يقم فيها إلا ريثما يملأ مخازن ميرته ؛ فلما فعل واصل الزحف إلى حمص ؛ ولولا

(١) كدلڤين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ١٣٦ ؛ سماركو وثائق إيطالية لم تنشر المجلد التاسع ص ٢٧١ وفيها تقرير رسمى يثبت لين إبراهيم فى معاملة المهزومين

ذلك لأثرت فيهم بترفها ورذائلها وكانت لهم كما كانت كپوا Capua [١] لجنود قرطاجة .

وكان والى طرابلس ينتظر قدومه ومعه ثلاثون ألفاً من الجند هم مقدمة الجيوش العثمانية التى نزلت إلى ميدان القتال . ولو تأخر إبراهيم عن الزحف لوصل المدد إلى الجيش التركى فزاد عدده ، ولذلك تقدم نحوه لا يلوى على شىء ، وتمكن فى اليوم الثامن من شهر يولية سنة ١٨٣٢ من الإحداق بالعدو ، لكنه لم يبدأه بالهجوم . فلما هجم عليه القائد العثمانى بعساكره أصلاهم المصريون من بنادقهم المسددة ناراً حامية ، قطعت نظامهم وأدبارهم . ولم تدم المعركة إلا قليلا ولكنها انتهت بنصر إبراهيم نصراً مبيناً [٢] . وتدل محفوظات القنصلية الروسية بالقاهرة على أن إبراهيم أسر من الأعداء ٢٥٠٠ واستولى على عدد عظيم من المدافع وكثير من « الأمتعة » [٣] . وكتب إبراهيم إلى أبيه فى ١١ يولية سنة ١٨٣٢ تقريرا ينبئه بهذا النصر ويؤيد تلك الأرقام ، ولكنه يرفع عدد الأسرى إلى ثلاثة آلاف . وقد جاء فى هذه الرسالة الرسمية « أن الجيش المنهزم كان يشتمل على ثمانية من الباشوات وأربعة آلايات من المشاة ، وثلاثة من الفرسان ، وخمسة عشر ألفاً من الجنود غير النظاميين ، وأن خسائره بلغت ألفى قتيل وألفى جريح بخلاف الأسرى » . وقد نقل الجرحى والأسرى إلى عكا [٤] .

---

(١) مدينة حصينة قرب نابلى دعا أهلها هنيبال فى أثناء غارته على إيطاليا ليقضى فيها الشتاء هو وجيشه فى عام ٢١٦ ق . ب ، وفيها انغمس الجنود فى الترف والملاذ فضعفت قواهم واستردها منهم الرومان بعد ذلك . وقد دمر العرب المدينة القديمة فى عام ٨٤٠ م وقامت المدينة الحديثة فى مكانها . (المعرب)

(٢) تاريخ الثورة المصرية تأليف ا . ا . باتن . لندن تربنر وشركاؤه ١٨٦٣ ص ٩٦ .

(٣) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٢٢ .

(٤) مجموعة رسائل محمد على المطبعة الأهلية ١٩٣ الوثيقة رقم ٤٦١ .

ولم يقنع إبراهيم بهزيمة العدو بل وجه عنايته إلى تنظيم إدارة البلاد التى فتحها ، فاختار فى ١٤ يولية عشرين من أعيان دمشق وألف منهم مجلساً لحكم الولاية . وصيغ بلاغه لهذا المجلس فى العبارة الآتية :

« يجب على الراعى أن يعنى بأمر رعيته ؛ ولذلك رسمت الخطط لإصلاح حال السكان الذين أؤتمنت على مصالحهم ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بنشر العدالة بينهم والعمل لخيرهم .

« وتنفيذاً لهذا العزم ألفت مجلساً من أعيان البلاد وتجارها ، وعهدت إليه النظر فى شؤون الأهالى . وستكون جلساته علنية ، ويدخل فى اختصاصه جميع المسائل المدنية العادية . أما المسائل القانونية فسيرجع فيها إلى رأى علماء القانون » [١] .

لكن إبراهيم رغم تفكيره فيما عليه من التبعة المغلوبين ، لم ينس قط أنه جندى فى الميدان ، وأن واجبه الأول هو أن يسحق قوة أعدائه . فوجه همه كله إلى هذه الغاية وظفر بالنصر تلو النصر ، واستسلمت له المدن واحدة بعد الأخرى ، فسقطت حلب فى ١٥ يوليه ، وفى التاسع والعشرين منه أباد جيشاً تركيا آخر عند ممر بيلان . ولما رأى القائد العثمانى العام أنه لم يبق له فى النصر رجاء ، ولى مدبراً نحو أطنه تاركا بلاد الشام كلها لإبراهيم يتصرف فيها كيف شاء . وجاء فى تقرير رسمى مرسل إلى وزير الخارجية فى حكومة الصقليتين [٢] أن الرعب قد تمكن من قلب القائد التركى ، فترك الخيام والأمتعة والمدافع والذخائر وغيرها وراءه ، وفر مسرعاً نحو أنطاكية .

---

(١) المصدر عينه الوثيقة رقم ٤٦٤ .

(٢) سماركو فى كتابه السالف الذكر ص ٩٧ .